مصر العظيمة

هكذا كانت مصر عظيمة بماضيها ، كانت نبراساً للحضارات ومعهداً للعلوم ومستقي للفنون ـ ظلت أجيالا طويلة تحمى الشرق من عدوان الغرب فبهرت جميع أمم تلك الأجيال بحضارتها ومجدها

مصر أسبق أمم العالم إلى ميادين العلم والنور فى وقت كانت روما وأثينا واسبرطه ترقد فى أحضان الخمول والجهل .. مصر هى التى رفعت مشعل الحضارة للجنس البشرى واختطت له وسائل حياته

مصر أول بلاد العالم جرت فى طرقاتها وصحاريها ووديانها العربات الحربية تحمل الأبطال الظافرين . . أحمس وتحوتمس ورمسيس وبسماتيك وصلاح الدين وابراهيم

عمر التاريخ المصرى ستة آلاف سنة على وجه التقريب . وهذه المدة هى تاريخ الجيش المصرى أيضا ، وعلى عاتق جنود أبناء النيل عاشت مصر أمة مستقلة وفى هذا الوادى السعيد تدفقت جحافل الجيوش المصرية لترفع علم مصر عاليا بين الأمم، ولم تكن الرغبة فى توسيع الرقعة المصرية الدافع الأصلى للفتح والسلطان ، بل إن المصريين فى توسعهم كانوا أبداً دائبين للوصول إلى الحدود الطبيعية

اندفعت الجيوش المصرية منذ القدم نحو هضاب آسيا الصغرى وروابى الشام وبادية شبه الجزيرة والصحراء الليبية وأعالى النيل الى المحيط الهندى .

لقد لقنونا ونحن تلامذة صغار حقائق طبيعية أو تاريخية طبعت فى أذهاننا صوراً تافهة عن الوطن المصرى ولم يحفل أحد فى العصر الحديث بتصحيح ما كتب مع أننا فى حاجة لمن يكتب لنا تاريخا فى صور شعبية تفهمه كل العقول وتحفظه كل القلوب

هذا التاريخ المجيد الذى إذا أحييناه ووعيناه لوضعنا أسس مستقبل أمجد وأبهى

نؤسسه على ماقات ونصل به حاضرنا بماضينا

* * *

ساعدت الطبيعة الجغرافيـة بلادنا أعظم مساعدة ، فـكان من أشق الأمور وأصعبها إغارة الجيران المعاديين عليها . وكانت صحراء ليبيا سداً منيعاً لـكل غارة من جهة الغرب ، على حين ان سواحلها الشمالية لم تعرضها لأى خطر .

فى ذلك العهـد من تاريخها لم يكن لها اعـداء أصحاب أساطيل قوية تهاجم شواطئها المـكشوفة . أما الأقوام الذين يقطنون وراء حدودها الشرقية والجنوبية فأنهم كانوا أقل منها ثقافةومدنية . فـكان خطرهم على تهديد سلامتهاشيئا لايحسب له حساب ، ومرت على مصر فترات خمول أيضا كالتى مرت على جميع شعوب العالم . فليست هناك أمة خلقت قوية وظلت قوية طول حياتها بل مامن شك أن كل أمة قوية ينتابها بعض عوامل الضعف ومصر إحدى هـــذه الأمم غزتها أقوام كان أولهم الهـكسوس . فدانت لهم الأرض المصرية ولـكن لم تعترف بسلطانهم على النفوس . ثم أعقب احتلالهم نهوض وتجديد وتحسين . فأضاف المصريون تراثاً جديداً وأخذوا عن المحتلين بعض فضائلهم

وإذا عدنا إلى عصر ماقبل التاريخ فسنجد مصر وقد غمرتها الحروب الداخلية والخارجيـة لأن ذلك لاينافى طبيعة البشر . وقد عثر على بعض ألواح ترجع إلى عصر ماقبل التاريخ يستدل منها على قيـام حروب بين المصريين وبدو الصحراء وأهل بلاد النوبة . وكان النزاع لايقف بين سكان الوجهين القبلى والبحرى إلى أن وحدت الأرضان فى عهد الملك مينا ــ وقد عثر فى هيراكنبوليس على نقوش ملونة يرتد عهدها إلى ماقبل عهد الأسرات . وهى موجودة الآن فى المتحف المصرى يشاهدعليها بعض المحاربين القدماء وهم فى ساحة القتال . وتدل كيفية تسليحهم دلالة واضحة على تقدمهم فى فنون الحرب مما يثبت وجود جيش فى البلاد . إذ نجد أن المحارب كان مسلحا بحربة فى نهايتها قطعة من الظران الحاد المدبب أو من العاج . وكان يحمى الجنـدى منهم زرد أو درع مصنوع من جلد الفهد

* * *

إن طبيعة مصر منذ القدم لاتسمح لها الا أن تكون أمة متحدة ، فهى من بين بلدان العالم القليلة التى يغذيها نهر عظيم يجرى من الجنوب الى الشمال . وأملت طبيعتها عليها أن يحكمها رجل واحد ـ فرأينا منذ فجر التاريخ أميرا مصريا أصبح فيما بعد . الملك مينا . أسس ملكا عظيما شيّده على أنقاض الحكومات المحلية فكان الرجل الأول الذى حكم مصر ولم يكتفه تأسيس هذا الملك ، بل جعل حب الوطن ايمانا راسخا فى قلوب مواطنيه . وجعلهم يؤمنون بأنهم أبناء وطن واحد

لانعرف تماما كيف اتحدت مقاطعات الدلتا وألفت منها دولة الشمال . وكيف اتحدت اقاليم الصعيد وكونت دولة الجنوب . ولكن مما لاشك فيه ان هذا الاتحاد لم يتم بدون حرب ،ومن المحتمل أن تكون أول معركة مصرية حاسمة هى المعركة التى نشبت بقيادة مينا أول فراعنة الأسرة المصرية الأولى لما غزا البلاد الشمالية وأخضعها لسلطانه . وقام بعد ذلك بتثبيت عاصمة ملكه الجديد فى ذلك الموقع الهام « منف » عند رأس الدلتا بالقرب من ضاحية القاهرة القبلية « حلوان » الحديثة واختلفت الآراء حول المعركة الأولى . وعن نوع الحروب التى تبعتها وهل كانت حروبا تشبه المعارك التى تقوم بين القبائل وبعضها أو كانت حروبا حقيقية كالتى عرفتها مصر أثناء القرون الطويلة ... اننا نستنتج مما كشف من الآثار أن تلك المعارك القديمة كانت منظمة بلغ عدد ضحاياها ٦٢٥ قتيلا و١٤٢ أسيراً وأنه كانت تسودها روح حربية قوية

وقد ترك لنا الفراعنة الأول أدلة كثيرة تشهد بروح الاقتتال التى سادت حروبهم فاننا نشاهد تذكاراً لانتصارات الملك نارمر (مينا) مدونة على لوحة كبيرة من الشيست على أحد وجهيها يرى رافعا دبوسه ليضرب به أسيرا ربما كان من سكان الدلتا، والمنظر الرئيسى على الوجه الثانى يمثل الملك سائرا مع اتباعه ليشرف على الأسرى المذبوحين ، وقد سار حاملو اعلام المعبودات المختلفة أمام الملك . ويرى تحت هذا المنظر حيوانان خرافيان خاصان بالعصر العتيق . وقد مثل الملك فى الأسفل على هيئة ثور يهدم قلعة استولى عليها .

ولم يكن إخضاع أمارات الشمال أمراً سهلا ، فاننا نعلم أن الثورات الداخلية

كانت تنشب بين حين وآخر . وكانت أعمال العنف مستمرة الى أيام الأسرة الثالثة المصرية . ونستنتج من قصص الأسرى المنقوشة على كثير من الآثار القديمة عدة أمور متعلقة بحروب الدولة القديمة .

إن اتفاق بعض المؤرخين على ان مصر تمتعت بنعيم السلام أحقابا طويلة حتى غزا الهكسوس الدلتا أمر يتطلب التمحيص . على انه مما لاشك فيه انه ليس فى الديانة المصرية إشارة أو نصوص تحرم الحرب وتلغيها ، ولم تخرج مصر للعالم منذ القدم نبيا أو مصلحا كأزوكا او لاوتس هاجم فى تعاليمه أو وصاياه الحرب ، فقد كان فراعنة مصر ابطالا محاربين يتباهون بجنودهم فيما دونوه على نقوش الجرانيت وكانوا يحبون الموت فى سبيل الدفاع عن أوطانهم أو عندما يقاتلون دولة معتدية وكانت الآلهة المصرية تحبب الى الفراعنة القتال ومخاصمة الأعداء كما أنها ألهمتهم الانتصار . وان المعابد والهيا كل القديمة التى شيّدها الملوك المصريون بعد عودتهم ظافرين من ساحات القتال لخير شاهد على تمجيدهم للحرب . فقد كانت عقيدة سامية حازت رضا الآلهة . ولئن كان هناك نعيم دنيوى . فلا شك ان مصر كانت جنة هذا النعيم .. فجوها المعتدل وسماؤها الصافية وجمال طبيعتها الدائم وشمس شتائها الساطعة تضاف الى تلك الخيرات هبة نيلها السنوية ، كل هذه الفضائل جعلت مصر وحيدة فى فضائلها . مطمئنة فى حياتها وبصحرائها صارت بعيدة عن جشع أعدائها . وكانت الصحراء كما هى اليوم على ضفتى وادى النيل حارسة لمصر تحميها من اعدائها . . فى عصر كان بحر الروم لا يحمل على صدره مشكلات المدرعات وحاملات الطائرات كما غدا اليوم . فلماذا أراد المصريون الحرب وهم يتمتعون بهذا النعيم . وما الذى دفع جيوش مصر لفتح بلاد الدول المجاورة ؟ ؟

لقد كان لزاما على أهل مصر أن يحافظوا بحياتهم وبكل عزيز عليكونه على هذا الشريط السندسى الذى مازلنا الى اليوم نحميه ونقيه بكل عزيز .. يحمونه من غارات أهل البادية والقبائل الهمجية من أهل الجنوب - ومن هنا نشأ أول تدريبهم على القتال بعد أن ألفوا وحدتهم . . نعم وحدتهم القومية

ولا نعلم شيئا كثيرا عن جيش الملك مينا بعد قضائه على حكم الأمراء ومنذ أصبحت مصر كلها فى قبضته ، وليس لدينا من الآثار ما يدلنا على وجود جيش موحد للبلاد المصرية قبل عهد الملك (زوسر) مؤسس الأسرة الثالثة . فانه لما وطد السلطة الادارية فى يده كان يعتمد على جيش أشرفت عليه ادارة منظمة والملك زوسر أول من نظم وسائل الدفاع عن مصر فقسم حدود البلاد الى مناطق أطلق عليها اسم أبواب المملكة . وجعل فى كل منها حامية وعين على كل من هذه المناطق حاكما خاصاً يلقب (مرشد الأرض) وكانت لهؤلاء الحكام الكلمة العليا على حكام المقاطعات . وكان فى يدهم ادارة الشرطة كل فى مقاطعته ولذلك كانوا مسئولين عن النظام والأمن فى هذه المناطق، وكانت حاميات تلك المناطق تخضع مباشرة لهذا الموظف . وقد شيّدت لتلك الحاميات العسكرية حصون منيعة لحماية الأقاليم والدفاع عنها . وكان فى كل حصن قوة من الجند تقوم بأعمال الخدمة وتخزين مؤنة تكفى الجند مقاومة الحصر مدة طويلة وقد حفظت لنا اسماء بعض هذه الحصون منذ الأسرة الثانية فقد عثر فعلا على خاتم نقش عليه اسم حصن (سخرحتب) وكذلك عثر على اسم حصن آخر من الأسرة الثالثة نقش على خاتم لكاتب هذا الحصن ويطلق عليه اسم بطولة الأرضين .

وإذا لم يبق الزمن على مخلفات بعض الحصون المصرية التى شيّدت خلال الدولة القديمة إلا ان شواهد الأحوال تدل على انه أقيم فى العرابة حصن من أقدم الحصون المصرية . وقد عرف المصريون القدماء كيفية انتخاب المواقع الحسنة لبناء تلك الحصون والمعاقل فكانوا يقيمونها فى الأماكن التى يرون أنها معرضة لخطر الغزو . أو انه يمكن ان يصد العدو منها بسهولة كمخانق النهر حيث تضيق الجبال على كلا جانبى الوادى ، أو عند بداية الوديان التى تشرف على الصحراء مباشرة والتى يسهل على البدو وغيرهم أن ينقضوا منها على البلاد وينهبوا منها ما يشاءون .

كانت كل هذه الحصون (ابواب المملكة) مقامة على طراز واحد . لاتختلف

بعضها عن بعض فى مقدار مساحة كل حصن وسمك جدرانه الخارجية . وكان تخطيط الحصن يشبه سطحاً متوازى الأضلاع . وكان سوره الخارجى فى أغلب الأحيان مقسما الى دعامات عمودية من المبانى تربطها مداميك البناء بالطوب النى

وقد حمى المصريون القدماء بلادهم بما شيّدوه من الأسوار الضخمة فى النقط الضعيفة من الحدود . فقد أقام الملك (زوسر) سورا من اسوان الى الفيلة يبلغ طوله نحو ١٢ كيلو متراً يضمن سلامة حدوده الجنوبية . ويعتقد بعض علماء الآثار ان السور العظيم الذى أقامه أمينمحعت الأول لسد برزخ السويس فى وجه المغيرين لم يكن الا تجديدا لسور أقيم فى عهد الدولة القديمة . وقد خلّد الملك (سنفرو) اسمه ضمن اسماء عدة قلاع فى هذه المنطقة . فكان أول من حمى حدود مصر الشرقية . وشيّد الملك سنفرو إبان حكمه بعد انتهائه من محاربة الزنوج سلسلة منظمة من الأعمال الدفاعية فى شمال مصر وجنوبها . وقد عرفت تلك الحصون بقلاع سنفرو

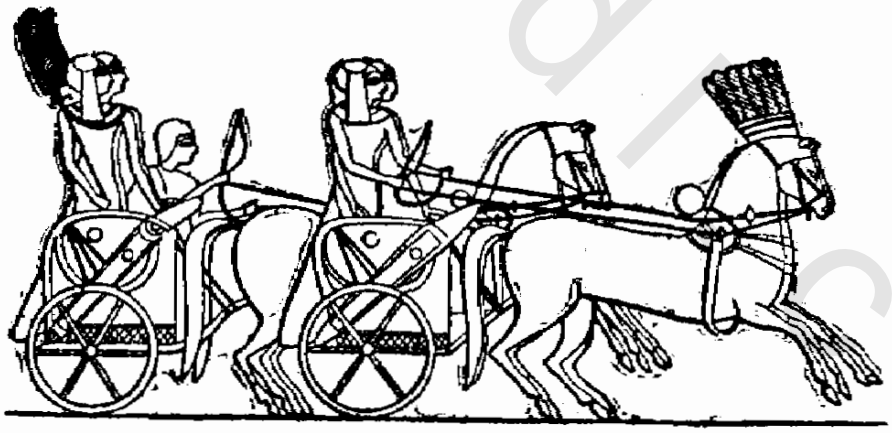

الفرسان المصريون القدماء فى طريقهم إلى الظفر

كان الجيش بطبيعة تكوينه خاضعاً للملك ، وكانت وحدة القتال يطلق عليها « عبر » تتكون من الجنود الشبان ويقود الوحدة ضابط برتبة «خرب» وكثيراً ما كنا نرى هذه الرتبة تطلق على الموظفين الاداريين الذين توضع تحت نفوذهم فئة من الناس وكان يطلق على رئيس الوحدة العسكرية المذكورة قومندان بلوك المجندين « الجنود » وقد وقفنا على هذه الرتبة من ختام للأسرة الثالثة (١)

وفى أواخر أيام الملك « سنفرو » من ملوك الأسرة الثالثة بلغت مصر درجة رفيعة من الرقى. فقد أخضع بدو سينا خضوعاً تاماً وسجل انتصاراته على صخورها ووطد سيادة مصر على تلك الأقاليم . وقد اعتبر فى العصور التالية المؤسس الأول لنفوذ مصر فى سيناء . ومما لانزاع فيه أنه كانت هناك عدة وظائف إدارية يشغلها رجال من الجيش أو بالعكس بمعنى أن السلطتين العسكرية والادارية كانتا مندمجتين أحياناً . والدليل على ذلك لقب مدير « إمرا » الذى كان يحمله قائد الجيش هو لقب مدير الجيش (إمرا مشع) أى أنه كان القائد الفعلى للجيش . وقد تألف الجيش من عدة فيالق كل منها على رأسه قائد جيش (امرا مشع) وكل هذه الفيالق كانت تحت إمرة رئيس أعلى يطلق عليه قائد الجيوش الأعلى . وكان يتقلد هذه الوظيفة رجل من أكبر عظماء الدولة . ففى عهد الأسرة الثالثة كان يحمل هذا اللقب اثنان أحدهما « رع حتب » أحد أولاد الملك والثانى « نيسوزدف » وهو أمير ملكى .

وفى عهد تلك الأسرة كانت الادارة العسكرية تسمى « بيت الأسلحة » وكانت مهمة هذه الادارة الاشراف على تسليح الجيش وتموينه وأعماله الكتابية .

---

(١) الدكتور سليم حسن — مصر القديمة — ج ٢

الأسرة الرابعة (٢٩٠٠ — ٢٧٥٠ ق . م)

شغل ملوك هذه الأسرة ببناء أهراماتهم . فلم تصلنا أنباء فتوحاتهم ، ولكن النظام الادارى للجيش كان هو نفس ماإتبع أثنـاء الأسرة الثالثة . وكان قائد الأسطول هو قائد الجيش البرى أيضاً . وقد عرف « تنى » أحد عظماء الدولة القديمة بامرته للبر والبحر وكان فى الوقت نفسه يحمل لقب مدير البعثات الملكية . وكان لفرق الجيش ، ولكل وحدات الجنود إدارتها المؤلفة من كتبـة ، وقد حفظت لنا النقوش اسم أحد هؤلاء المديرين وهو (عاخى) الذى كان يحمل لقب مدير كتبة الفرق . وكان مكلفاً بتجنيد العساكر وإدار شئونهم فى مديريته

الأسرة الخامسة :

مدّ أوسر كاف ملكه إلى ماوراء الجنادل الأولى ولم يطرأ شىء جديد على جيش هذه الأسرة فقد كان مؤلفا من مجندين كان يطلق على الواحد منهم فى هذا العهد « الشاب الجميل » وتتألف منهم وحـدات كل منها تحت امرة ضابط يحمل لقب رئيس الوحدة ومن هذه الوحدات مجتمعة كانت تتألف كتائب الجيش (عبر مشع) وعلى رأسها قائد يحمل لقب قائد كتائب الجيش .

وكان الجيش فى أوقات السلم يقوم بحفظ الأمن والنظام فى داخل البلاد . وكانت ترسل منه أقسام للعمل فى محاجر سينا والحمامات ومحاجر طره .

وقد عنى بتدريب الجنود عناية فائقة . فـكانوا يتلقون دروسا حربية ويتدربون على التمارين العسكرية تحت اشراف ادارة خصصت لهذا ، ونذكر هنا على سبيل المثال « كام ثننت » الذى كان يحمل لقب قائد جيوش البر والبحر ومدير التعليم للجيش ، وكان يعتقد أكثر رجال التاريخ القديم أن الجيش المصرى كان مؤلفاً من جماعات من الرجال المسلحين يقود كل جماعة منهم سيدهم . بل انه كان فى الواقع جيشا حكوميا مؤلفاً من وحدات حربية تحت اشراف ضباط فنيين لايقومون بأى عمل مدنى . وكان مظهر الجيش فى السلاح واللباس واحدا فى كل وحدة . ونجد مايؤيد قولنا فى الرسوم التى عثر عليها فى معبد الفرعون « سحورع » إذ

ترى مناظر الجنود يخطون خطوات حربية وكلهم مسلحون بعدة واحدة قابضون على سلاحهم بنظام واحد . وقد أرسل سحورع من ملوك هـذه الاسرة أول حملة الى بلاد بنت(إريتريا) وثانيةالى سيناء وثالثة الى الشام .

الاسرة السادسة

وفى عهد الأسرة السادسة كان الجيش المصرى يشتمل عدا الوحدات المجند على جنود مرتزقة وكان يقود الكل قائد الجيوش العام ، ومع ذلك فان الجيش الوطنى كان يؤلف وحدة تحت إمرة قائد لقبه مدير رؤساء المجندين ـ وهو لقب كان يطلق على قيادة الجيش النظامى المؤلف من كتائب جنود مصريين ، وكان قواد الجيوش ينتخبون من بين كبار الموظفين أو أمراء الأسرة المالكة ، وكان معظمهم يحملون الألقاب الملكية العظيمة مثل « الذى فى قلب الملك » ومن قواد الأسرة القائد « سشمو[1] »

وكان من اختصاص بيت الأسلحة علاوة على بناء المعاقل وصنع السفن ادارة شئون الغلال التى كانت معدة لتموين مصلحة الأعمال الحربية وخزن مايلزم من المؤن فى القلاع ، وتجهيز الجيش بالسلاح والملابس والطعام والمعدات اللازمة للقتال . فلم يقم الجيش المصرى على السخرة أو على السلب بل كان يعتمدفى وقت الغزو فى عدته وعتاده وطعامه على الادارة الحربية .

وقد قص القائد (أونى) أثناء الحملات التى كان يقودها فى نهاية الأسرة السادسة : ان تموين الجيش كان على احسن مايرام حتى انه لم يوجد جندى قد أخذ حذاء أو نعلا مما كانت فى طريقه اغتصابا ، ولم يكن من بينهم من أخذ عمداً ملابس من أى بلدة كانت ، ولا من اغتصب معزا من أى شخص كان . وفى خلال حملة حربية أرسلت الى خليج العرب فى عهد الملك « اهوتب » أحد ملوك الاسرة السادسة وضعت ادارة الجيش تحت تصرف الجنود والعمال نحو خمسين ثورا و ٢٠٠ من الماعز لمؤنتهم .

وفى عهد الأسرة السادسة حاول فراعنتها ان يستبقوا فى ايديهم السلطة

المباشرة لجعل القيادة فى أيدى اشخاص من الأسرة المالكة . يدل على ذلك أن قائدين للجيش فى أوائل الأسرة السادسة كانا من أقرباء الملك

ولم يطرأ تغيير فى نظام الجيش فى عهد الملك (تيتى) ولكن يظن أنه حدث انقلاب فى عهد بيبى الأول فى نظام الجيش بسبب انحلال الدولة وتقسيمها الى مقاطعات مستقلة . فأصبحت الوظائف الحربية وراثيـة تقريباً . وبذلك نجد أن (ابدو) الذى قاد حملة الى سينا فى العام التاسع عشر من حكم (بيبى الأول) كان يحمل لقب قائد الجيش الذى كان يلقب به والده (مره رع عنخ) من قبله. والملك بيبى الأول ملك من طراز احمس الأول وتحوتمس الثالث ورمسيس الثـانى وهو من أعظم ملوك الأسرة السادسة التى حكمت مصر نحو مائة سنة بين عامى ٢٦٢٥ و٢٤٧٥ (ق . م) . وقد حكم وحده نحو نصف قرن

وقد يكون من أهم مخلفات عصر هذا الملك النقوش التى تركها لنا القائد (أونى) الذى عاصر أكثر من ثلاثة ملوك . وقص علينا فيها كل ما كان يقوم به من جليل الأعمال وما ناله فى عهد كل فرعون من الرقى

قال هذا القائد :

لقـد قام جلالته بحملة تأديبية ضـد الأسيويين رؤساء الرمال . وقد جهز جلالته جيشا مؤلفا من عشرات الآلاف من الرجال من كل الوجه القبلى من أول الفنتين فى الجنوب حتى أطفيح شمالا وقد جندتهم إدارة جيش المرتزقة بأجمعهم فى القلعة وقد وضع جلالته الجيش تحت إمرتى . على حين ان فيه الأمراء ، وحاملى خاتم الملك فى الوجه البحرى ، وأصحاب القلاع العظيمة ومديرى القوافل ومدير الكهنة ومديرى الجيوش المرتزقة . وكان كل منهم على رأس فيلق من قلاع الوجه القبلى والبحرى والضياع التى يحكمونها . وقد كنت أنا الذى أسهر على نظامهم مع كونى كنت مدير أوقاف القصر وبسبب مكانتى لم يأخذ أحد شيئاً من جاره ولم يسرق واحد منهم عجينة أو نعلا من السابلة ، ولم يأخذ واحد منهم ملابس من أية بلدة ولم تغتصب ماعز أى رجـل ، وقد قدت هؤلاء الجنود بطريق جزيرة

الشمال وبوابة « إمحوتب » واستعرضت كل فيلق من هؤلاء الجنود أمامى

ثم يقول . . . . . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن خرب بلاد العدو

لقد عاد هذا الجيش سالما بعدأن نهب بلاد سكان الرمال . لقد عاد هذا الجيش سالما

بعد أن أزال قلاعهم . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن قطع أشجار تينهم وكرومهم

لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن حمل الحديد والنار بين كل سكانهم

لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن ذبح كل جنودهم

لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن جاء معه بجنود عدة أسرى

ولقد أثنى علىّ جلالته أكثر من أى شخص

وقاد القائد (أونى) أول حملة الى فلسطين وكانت الأولى من نوعها لاشتراك سفن البحر مع الجيش البرى . ولما تولى الملك مرن رع الحكم عين (اونى) حاكماً ومسيطراً على الوجه القبلى بلقب (حاكم الجنوب) وكان أهم عمل له هناك حفر خمس قنوات عند الشلال الأول لتسهيل سير السفن التى كانت تعترضها الصخور فمهد الاتصال ببلاد السودان والأقطار الأفريقية .

وسنقتبس من قصته مايهمنا من الناحية الحربية .

قام (أونى) بثلاث حملات قصد فى الأولى والثانية منها إلى بلاد (إيام) التى قامت ضد بلاد لوبيا (تمح) وفى الثالثة قصد لوبيا وأخضعها

ثم تعاقبت على الحكم أسرات ضعيفة إلى أن أتيح للأسرة الثانية عشرة أن تكون لها مجداً كبيراً فى عهد امنمحعت الأول والثانى والثالث ، ولكن إلى حين إذ مالبث أن أفل نجمها . وقامت على أنقاضها الأسرة الثالثة عشرة ضعيفة مضمحلة فانفصل عنها الجزء الشمالى ، حيث تكوّنت الأسرة الرابعة عشرة . ثم تغلب ملوك الرعاة (الهكسوس) وملكوا البلاد حوالى مائة وخمسين سنة . وأسسوا الأسرة الخامسة عشراً وفى خلال هذا العهد المظلم تعلم الشعب المصرى الذى لم تتغير نفسيته بالرغم من المحن التى ابتلى بها أثناء احتلال الهكسوس . تعلم دروسا جنى ثمارها فيما بعد لما اشتد القتال بقيادة أمير طيبة (سفنن رع الأول والثانى) حتى إذا جاء عهد الملك سفنن رع الثالث كانت الحرب قد اشتد أوارها

اندلعت ألسنة الحرب واستمرت سجالا بين الفريقين. وقاد سقنن رع الثالث الجيش المصرى والتقى بالعدو وتطاحنا بالقرب من الاشمونين وإذا بسقنن رع الثالث يقع شهيد وطنيته قتيلا فى ميدان الحرب . فخلفه ابنه البطل (كاموزى) الذى قاد رجاله ونجح فى طرد الهكسوس الى مدينة منت . مات كاموزى فتولى القيادة ملك جديد هو أحمس الأول أصغر ابناء (سقنن رع) الثالث وأشجعهم. فضرب الهكسوس الضربة القاضية وخلص مصر من الأعداء ورد إليها سيادتها

عرف أحمس كيف يستخدم تلك الروح الوطنية التى كان قد بثها فى صدور جنوده عقب تخليص وطنهم من المغيرين فأنشأ أول جيش للبلاد تمتاز جنوده بخدماتهم الطويلة . وذلك لكي يحقق مطامعه فى الفتوحات السورية وكان الجيش ينقسم إلى قسمين . القسم الأول من الجيش للخدمة فى الميدان السورى . والقسم الثانى من الجيش للخدمة فى مصر وامداد القسم الأول عند الحاجة وكاحتياط له

* * *

ثم توطدت أركان الدولة المصرية ونظمت طبقات الشعب . وعمّ الأمن البلاد وامتلأ الوادى الجميل بالآثار الفخمة والمعابد العظيمة والتماثيل الرائعة ، ونظمت وسائل الرى وتقدمت الزراعة ومهدت الطرق وقويت الجسور . وشيّد خزان لمياه النيل المتدفقة فى بحيرة موريس . وكانت فى الأمبراطورية المصرية ثلاث سلطات ـ الملك ورجال الجيش ورجال الدين فكان الملك يستمد سلطانه من الآلهة مباشرة وكان الى جنبه مجلس مؤلف من رجال الدين يستشيرهم فى المشكلات

وكان رجال الجيش ينتخبون الملك . فاذا تولى شئون البلاد جمع حوله رجال الدين وأمراء البلاد

لم يغير هؤلاء الهكسوس حياة البداوة التى عاشوا عليها فلم تتغير طباعهم أو تعدّل عاداتهم بل ظلوا على طبيعتهم يميلون الى حياة البادية ولم يشيدوا الدور أو الهياكل وعاشوا بعيدين عن المصريين لايعرفونهم وكانت جل أعمالهم جمع الضرائب

بقسوة وبدون عدل فكرههم المصريون وأضمروا لهم العدوان وكان كل مصرى ثائرا عليهم .

كان الاتحاد والوطنية قاضيين على حكم الرعاة بعد أن انغمسوا فى الرفاهية والترف فانحطت نفوسهم وفقدوا غرائزهم الأصلية الى أن طردهم أحمس من البلاد شر طردة، وكان من وراء روح التجديد الوطنى الذى بدأنه فى الحقيقة (تيتى شرى) جدة أحمس فى مصر، والحروب التى قامت بها وخلفاؤها لمناوءة الهكسوس أن تخلص المصريون من هذا العنصر المحتل وطاردوه الى سينا على أيدى أحمس كما

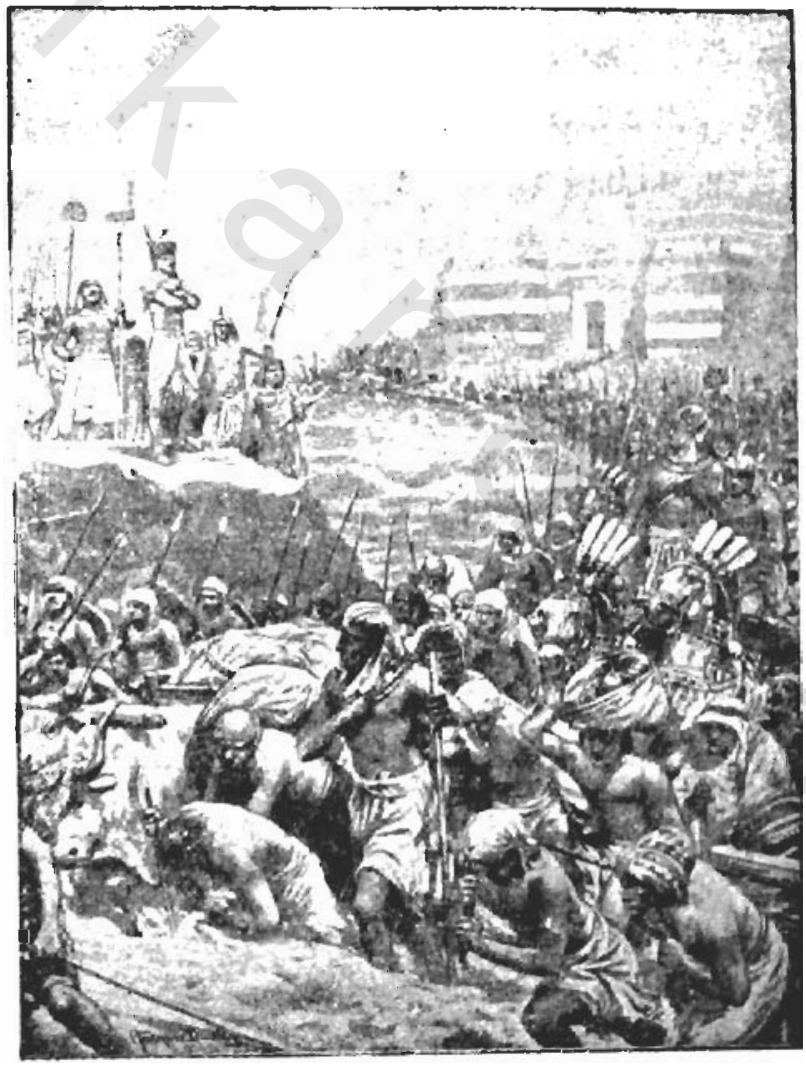

الملك أحمس يشرف على جيوش الهكسوس وهى تغادر مصر

رأيناها ، ثم قام خلفاؤه من بعده بملاحقة هذا العدو فى سوريا

كانت المدة التى أعقبت عصر النهضة المصرية أروع حقبة فى التاريخ المصرى. فقد أثار طرد الرعاة روحا جديدة وحماسة قوية لا يسعهما وادى النيل على ضيق جنباته فلم تصبح مصر أمة مستقلة فحسب . بل صارت أمة فاتحة تريد أن تتبوأ مكانتها التى تليق بنفسيتها الجديدة فاجتاحت جيوشها هضاب آسيا الى شواطىء الفرات واكتسح أسطولها الناشىء جميع الممتلكات التى فى طريقها الى المحيط الهندى. وعلى الآثار نستطيع أن نشاهد ونقرأ أنباء تلك الفتوح المصرية

فما الذى نراه على تلك الآثار ؟

نرى الجحافل المصرية بقواتها من حملة الرماح والدروع والقسى متجهة نحو أهدافها الحربية فتذوب أمامها الأعداء كما يذوب الثلج امام النار ، ونرى العربات الحربية الثقيلة ، وقد امتطاها جنود مصر فيشقون صفوف الأعداء ، ويقضون عليهم بسهامهم المميتة ويحاصرون المدن المنيعة ويسلطون عليها أدوات القتال والقذائف وسلالم الحصار وأبراج الموت المتحركة . فاذا تم لهم النصر عاد الفرعون يحمل جنوده الفائزون أعلام النصر بينما يعدو الأسرى أمام عربته الحربية أو ممسكين بها . ويتلو هذا الحفل صفوف الأسرى الطويلة يحملون نتاج أوطانهم من نباتات وخضر وفاكهة ، وتسير معهم فصائل الحيوان المختلفة مما ليس له مثيل فى مصر ، ومن تنوع فصائلها يستدل على البلاد التى وطأتها أقدام أبناء وادى النيل

فاذا وصلت مواكب الفرعون ظافرة إلى مصر شيّد الملك معبداً عظيما من الجرانيت أو الحجارة الكبيرة ، وزين مدخله بالمسلات الجرانيتية الخضراء أمامه طريق صفت على جانبيه تماثيل أبى الهول، ثم قام الفنانون بمساعدة رجال التاريخ والعسكريين بتدوين أنبائهم العسكرية وحوادث الحملة الحربية ليخلدوا ذكراهم على مر الزمان . فكانت مخلفات انتصارات الفراعنة هى الحجر الأساسى الذى ازدهرت بها العمارة المصرية القديمة

تحوتمس الثالث

فاذا وصلنا الى عصر الأسرة الثامنة عشرة وجدنا الروح العسكرية قد قويت فى صدور أبناء الشعب المصرى ، وبهذه الروح والقوة سار الملك الشاب تحوتمس الثالث على رأس جيشه العظيم الى معركة مجدو الأولى حيث وضعت قواعد فن الحرب والتى سار على ضوئها قادة الجيوش لما فتحوا فلسطين وسوريا فى مستهل القرن العشرين .

إن بطل الأسرة الثامنة عشر هو تحوتمس الثالث الذى حارب أمراء سوريا عشرين سنة متتالية فى سبيل تثبيته سلطان مصر فى هذه الأصقاع .

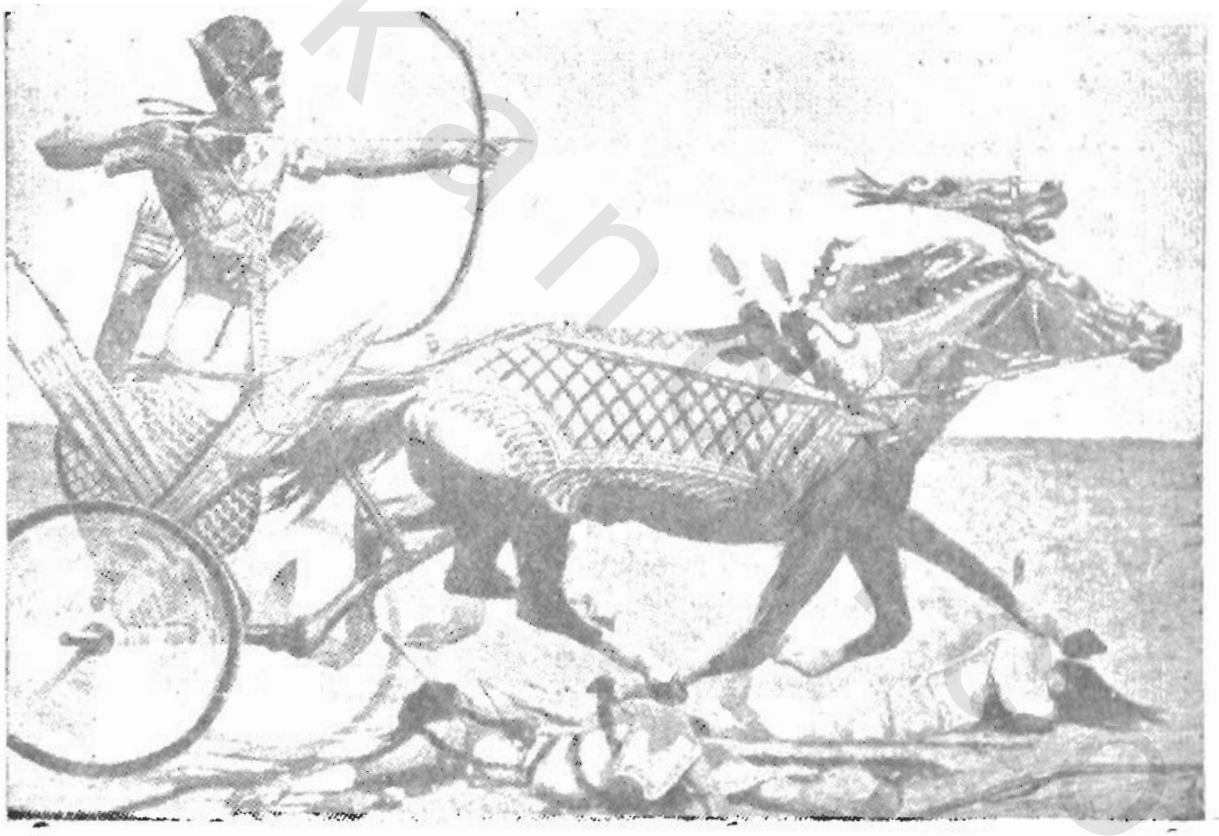

قائد من قواد الجيش المصرى القديم فى طليعة فرقته

اعتلى تحوتمس العرش سنة ١٥٠١ ق . م وأخذ يعد للحرب عدتها حتى كانت سنة ١٤٧٩ (ق.م) فقام من مصر ماراً بغزة حتى وصل إلى (يحيم) وعرونة على نحو عشرة

ميـال إلى الشمال من طولـكرم ، وكان أمام تحوتمس ثلاث طرق للوصول إلى مجدو حيث كان يعسكر أمير كادش ، ومن معه من أمراء سوريا الوسطى وأمراء الـكنعانيين فى فلسطين ، وكان هذا الأمير قد أقام فى مجدو ليدفع أى خطر ـ والطريق الأول يتجه إلى الشرق ويمر بالقرب من طولـكرم ونابلس وبجنين والطريق الثانى يؤدى لى الغرب ويمر بوادى الروحة الى مكان على نحو سبعة أميال شمالى مجدو (١) أما الثالث فهو طريق وعر ضيق صعب التسلق ينتهى أمام مجدو .

أراد الأمراء اتباع إحدى الطريقين الأوليين بيد أن تحوتمس أصر على عبور الطريق الثالثة وسار فى طليعة جيشه . حتى أشرف على مجدو بعد أن استغرقت رحلته نصف شهر مايو . وأمام أسوار مدينة مجدو المنيعة التى احتمى بداخلهـا ملوك وأمراء سوريا خاطب تحوتمس جنوده قائلا :

« إنـكم ان انتصرتم اليوم على أعدائـكم قضيتم على ألف مدينة وألف ملك » ـ مشيرا إلى الحلف الذى تم قبيل تلك المعركة بين ملوك البلاد وزعمائها تحت زعامة ملك قادش لصد زحف المصريين ولـكن أنى لتلك القوات المفـكـكة أن تقف فى وجه الفاتح العظيم وجيشه المنظم المتحد تحت قيادة واحدة

استعد الجيش المصرى فى ذلك اليوم للـكفاح . وفى صبيحة اليوم التالى التقى الجيشان المصرى والسورى فتغلب الأول على الثانى . ولفّ فى خط طويل إلى شمال مجدو ثم تغلب القلب بقيـادة تحوتمس نفسه ودحر السوريين واشتغل المصريون بالغنـائم فتمكن امير قادش ومن معه من السيطرة على الموقف داخل مجـدو فحاصر الملك المدينة إلى أن سلمت اليه . وقد كان احتلال مجـدو كاحتلال ألف مدينة إذ تجمع بها أمراء الحلف السورى . وقد غنم المصريون ٢٩٤ مركبة حربية بعضها مذهب و ٢٠٠ درع ودونت هذه الأسلاب فى هيكل آمون بطيبة . وعامل المصريون الأسرى بالحسنى كعادتهم . وأتم تحوتمس بعدها سيره الى فينيقيا واحتل صور . .

وهكذا ظفرت مصر وأسست امبراطوريتها الأولى فى الشرق الأدنى

---

(١) تقع مدينة مجدو على بعد خمسة عشر ميلا جنوب مدينة الناصرية بفلسطين

فاذا انتقلنا من فتوحات تحوتمس الثالث والذين خلفوه من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة أمثال تحوتمس الرابع وأمنحتب الثانى والثالث وجدنا الامبراطورية المصرية الأولى فى أزهر عصورها حتى يحكم البلاد أخناتون (امنحوتب الرابع) فيشتغل بالأمور الدينية ويبدأ انحلال السيادة المصرية فى آسيا إلى أن تنتهى فى عصر توت عنخ آمون — وسرعان مايقوم البطل الجندى حورمحب فيؤسس الأسرة التاسعة عشرة على أنقاض سابقتها ويصلح ما أفسده أسلافه ويعيد تنظيم الامبراطورية الثانية وكانت أهم حملاته فى بلاد النوبة

وبموته يعتلى العرش رمسيس الأول ثم سيتى الأول الذى استرجع فلسطين وأخضع البدو والفينيقيين . ثم واصل سيره حتى التحم بالحيثيين وعقد معهم محالفة ، وفى ذلك الحين تستعيد مصر مجدها على أيدى البطل رمسيس الثانى (١٢٨٨ — ١٢٧١) ق . م بطل معركة قادش الخالدة التى مازالت مخلدة على جدران معابدنا المصرية شعراً ونثراً .

رمسيس الثانى راكباً مجلته الحربية يحارب الليبيين فى أواخر أيامه

والحديث عن معركة قادش حديث طويل . ومن حسن الحظ أن معظم أنبـاء هذه المعركة مازالت محفوظة فى معبد مدينة هابو بالرمسيوم وقد بحثها بعناية المؤرخ الأمريكى « برستد » وطلع علينا بدراسة كاملة لا تقل فى ناحية من نواحيها عن إحدى معارك القتال فى العصر الحديث .

دارت هذه المعركة بين جيوش فرعون التى كانت تتألف من أربع فرق رئيسية وبين ملوك سوريا وعلى رأسهم ملك الحيثيين واستمرت أعواما طويلة . وهـذه الحرب وإن لم تحقق كل آمال رمسيس الثـانى فقد خرجت منها مصر مرفوعة الرأس محتفظة بكرامتها بمعاهدة عقدتها مع الحيثيين وكانت أول معاهدة صداقة بين مصر ودولة أسيوية .

والى اليوم نجد على الوجه الخارجى لأحد جدران معبد الـكرنك نص معاهدة السلام المذكورة .

وبانتهاء حكم الأسرة التاسعة عشرة نصل الى رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين الذى هزم الليبيين وسكان البحر ونظم ممالـكه الأسيوية وحصن حدودها

ثم بسط رجال الدين نفوذهم . فحكموا البلاد فترة من الزمن . وفى ذلك الحين اشتد سـاعد بعض رجال البـلاط من الليبيين . واستطاعوا أن يقبضوا على زمام الحكم . وانتقلت اليهم سيادة البلاد نحو قرنين . والواقع أنهم لم يؤثروا أدنى تأثير فى قومية المصريين واعتزازهم بمصريتهم . بل حدث أنهم تطبعوا بطباع المصريين وحافظوا على العادات والألقاب الأهليـة . وعبدوا آلهة المصريين . وكان أهم ملوكهم شيشنق .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى تسنى لبعض رجال النوبة الأقوياء من اغتصاب السلطان من أيدى الليبيين وحكموا باسم الأسرة الرابعة والعشرين . ومن هؤلاء بعنخى الذى بدأ الأشوريون فى عهده يهددون مصر . وتمـكنوا فى عهد خلفـه طهراقه من فتح مصر — وقد حاول إبنـه « تانوت امون » أن يبسط سلطانه مرة أخرى ولـكن خاب أمله

أخضع الآشوريون مصر ولم يخضعوا المصريين . ولكن بسماتيك الأول وهو ابن أحد أمراء الأشوريين كان قد فنى فى القومية المصرية . الى حد أنه انتقض على الأشوريين وأحيا الآداب المصرية القديمة وأعلن استقلال البلاد .

استطاع (بسماتيك) بجيشه الفاشيء أن يقضى على نفوذ منافسيه من الأمراء فى معركة دارت بينه وبينهم . وبدأ ينفذ سياسة التوسع . فانتهز الفرصة الملائمة لغزو سوريا بعد أن جهز جيشاً من المصريين والاغريق سار فى طليعته وعبر به الصحراء. وما لبث أن استولى على غزة وعسقلان .ثم دخل مدينة « أشدود » ظافراً ودانت له البلاد ثم عاد الى مصر — وشرع خلفه نخاو فى استعادة الممتلكات المصرية بآسيا مغتنماً ضعف آشور ونينوى . فغزا فلسطين وأخضع بلاد يهوذا . واتجه نحو أعالى الفرات ثم رجع إلى مصر بعد أن أعاد سوريا الى الدولة المصرية وكان قد اعتمد على أسطول قوى

وهكذا ظهرت مناعة المصريين ضد كل حكم أجنبى حتى أن قمبيز عندما تغلب على مصر فنى مع أهله فى القومية المصرية . فتلقب الفرس بألقاب المصريين وعبدو الآلهة المصرية ولكن رغم ذلك كله لم يكسبوا صداقة المصريين . فقاموا بعدة ثورات محاولين إخراج الفرس من مصر الى أن وفقوا فى طردهم أثناء حكم (دار الثانى) بيد أنهم عادوا اليها ثانية وبقوا فى البلاد الى أن استولى الاسكندر المقدونى على مصر عام ٣٢٣ (ق . م) وكانت بعد موته من نصيب بطليموس الأول أحد قواده فأسس أسرة البطالسة .

المصريون القدماء

كانوا أول أمة زراعية عظيمة فى العالم . . . فلاحهم أول من اخترع الفأس والمحراث والفاضحة(الشادوف)

حكومتهم أقدم حكومة عنيت بالرى ونظامه ـ وكانوا أول من حفروا القنوات واقاموا الخزانات والسدود

كانوا أول من مهروا فى الصناعات الدقيقة . وعجائب مصنوعاتهم تدهش أهل العصر الحاضر بجمالها ودقتها

كانوا أول من اخترعوا الكتابة وأول من صنعوا الورق فى العالم

كانوا أول من عرفوا العملة الذهبية والنحاسية. كما أنهم استعملوا الأوزان والمكاييل

عمائرهم وفنونهم قد خلدها الزمن وهى عنوان أقدم حضارة عرفها العالم

وضعوا أول قواعد الحساب والهندسة والفلك ـ ومنها اقتبس علماء الأمم الأخرى . ففى الحساب عرف المصريون الرموز العددية حتى المليون . وعرفوا مساحة المربع والمستطيل والمثلث . ووصلوا إلى مساحة الدائرة

ونبغ المصريون فى الفلك . وكانوا أول أمة ابتكرت التقويم السنوى وقدروا أيام السنة بـ ٣٦٥ يوما . والتقويم المصرى القديم الذى اخترع فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد هو التقويم الحالى الذى ورثه العالم بعد ستة آلاف سنة مع تعديل بسيط

وقسّم المصريون السنة إلى ثلاثة فصول . كل منها أربعة أشهر أولها الفيضان وثانيها البذر (الشتاء) وثالثها الحصاد (الصيف)

والمصريون أول من قاسوا الزمن . فاخترعوا المزاول لمعرفة الوقت نهارا والساعات المائية لمعرفته ليلا

والمصريون أوائل أطباء العالم . كان لديهم الأطباء الاخصائيون . كل يعالج عضوا من أعضاء الجسم ـ وعرفوا فوائد النباتات والأعشاب لمعالجة الأمراض . وأطباؤهم أول من زاولوا الجراحة ـ وقد برعوا فى فن التحنيط إلى حد لم يسبقهم فيه أحد حتى اليوم

والمصريون أول من جيّشوا الجيوش المنظمة . وأول من شيّدوا الحصون وكذلك كانوا أول من استعملوا الأساطيل البحرية

هؤلاء هم المصريون . . . الذين كانوا أول من أقاموا حكم الامبراطوريات وسنوا القوانين وشرعوا الشرائع .

هؤلاء هم المصريون . . .

البطالسة (٣٢٣ — ٣١ ق ٣٠)

كانت مصر فى عصرهم أعظم دول الأرض قاطبة ، قوة وثروة. وتمتعت الاسكندرية التى وضع أساسها اسكندر الأكبر بنصيب وافر من الرخاء والغنى ، وأصبحت مركزا للعلوم والفنون والآداب . وفى عام ٣١٨ ق . م — امتلك بطليموس سوريا وأنزل قواته البحرية فى قبرص واستولى عليها . وحوالى عام ٢٨٨ ق . م كان للاسطول المصرى السيادة فى بحر (ايجه)

وقد عمل خلفاؤه كل مافى وسعهم لرفع شأن مصر على البلدان المجاورة . ونجحت سياستهم ايما نجاح حوالى ثلاثة قرون

ولقد أثرت البيئة المصرية فى أسرة البطالسة ورجالهم ففنوا كن سبقهم من الغزاة فى قومية أهل البلاد وكثر التزاوج بينهم وبين المصريين وأخذوا يبالغون فى التقرب إلى المصريين ومع ذلك فان أهل البلاد لم ينفكوا يحقدون على المغتصبين فثاروا عليهم مراراً إلى أن تداعت الامبراطورية التى أسسها اسكندر الأكبر وفى كل هذه المراحل التاريخية لم يتمكن مستعمر من أن يغلب الروح المصرية

ثم بدأ نفوذ رومه يتسرب إلى مصر وانتهى الأمر بهزيمة (كليوباتره) و(مارك أنطونى) فى معركة أكتيوم البحرية . على يد القائد الرومانى (أوكتافيوس) عام (٣٠ — ٣١ ق . م) وأصبحت مصر جزءا من الامبراطورية الرومانية ومركزا من أغنى المناطق الاقتصادية ومن أخصب المراكز الثقافية فى تلك الامبراطورية التى أخضعت فى دورها بريطانيا التى تأثرت بالمدنية الرومانية لما كانت تمتازبها على المدنية الانجليزية

ظلت مصر ولاية رومانية ستمائة وسبعين عاما كانت فى خلالها ملجأ المسيحية . وانتهت أيامهم بغزو العرب لمصر عام ٦٤٠ م فعاد المصريون يثبتون مناعتهم التقليدية ويفنون الغزاة الجدد فى قوميتهم . ونشبت الثورات المحلية ضد الحكام الجدد فكان الخلفاء يحترمون ارادتهم إلى أن اعتنق المصريون الدين الإسلامى ودخلوا فى صفوفه أفواجا — وأصبحت مصر قلب العالم الإسلامى .